اشتراكه ﷺ في بناء الكعبة

الكعبة أول بيت بني على اسم الله ولعبادة الله وتوحيده فيه ، بناه أبو الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام بعد أن عانى من حرب الأصنام وهدم المعابد التي نصبت فيها .. بناها بوحي من الله تعالى وأمر له بذلك ﴿ وإذْ يَرْفَعُ إبراهيمُ القواعِدَ مِنَ البيتِ وإسماعيلُ ، ربَّنا تقبَّلْ منَّا إنّكَ أنتَ السَّميعُ العليمُ ﴾ [البقرة ١٢٧/٢] .

وقد تعرضت الكعبة بعد ذلك للعوادي التي أوهت بنيانها وصدعت جدرانها ، وكان من بين هذه العوادي سيل عرم جرف مكة قبل البعثة بسنوات قليلة ، حيث زاد ذلك من تصدع جدرانها وضعف بنيانها ، فلم تجد قريش بداً من إعادة تشييد الكعبة حرصاً على ما لهذا البناء من حرمة وقداسة خالدة . ولقد كان احترام الكعبة وتعظيمها بقية مما ظل محفوظاً من شرعة إبراهيم عليه السلام بين العرب .

ولقد شارك الرسول ﷺ قبل البعثة في بناء الكعبة وإعادة تشييدها مشاركة فعالة ، فلقد كان ينقل الحجارة على كتفه ، ما بينها وبينه إلا إزاره ، وكان له من العمر إذ ذاك خمس وثلاثون سنة في الأصح .

وروى البخاري في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : « لما بنيت الكعبة ، ذهب النّبي ﷺ والعباس ينقلان الحجارة ، فقال العباس للنّبي ﷺ : اجعل إزارك على رقبتك ، فخرّ إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء فقال : أرني إزاري فشدّه عليه » .

ولقد كان له ﷺ أثر كبير في حلّ المشكلة التي تسببت عن اختلاف القبائل حول من يستحق أن ينال شرف وضع الحجر الأسود في مكانه ، فقد خضع جميعهم لاقتراحه الذي أبداه حلاًّ للمشكلة ، علماً منهم بأنه الأمين والمحبوب من الجميع .

العبر والعظات :

نورد في تعليقنا على هذا المقطع من سيرته ﷺ أربعة أمور :

أولها : أهمية الكعبة ، وما جعل الله لها من شرف وقداسة في الأرض ، وحسبك من الأدلة على ذلك أن الذي باشر تأسيسها وبناءها هو إبراهيم خليل الله ، بأمر من الله تعالى لتكون أول بيت لعبادة الله وحده ومثابة للناس وأمناً .

غير أن هذا لا يعني أو يستلزم أن يكون للكعبة تأثير على الطائفين حولها أو العاكفين فيها ، فهي ـ على مالها من قداسة ووجاهة عظيمة عند الله ـ حجارة لا تضر ولا تنفع . ولكن الله عزّ وجلّ لما بعث إبراهيم عليه الصلاة والسلام بتكسير الأصنام والطواغيت وهدم بيوتها والقضاء على معالمها ونسخ عبادتها ، اقتضت حكمته جلّ جلاله أن يُشيِّد فوق الأرض بناء يكون شعاراً لتوحيد الله وعبادته وحده ، ويظل ـ مع الدهر ـ تعبيراً للعالم عن المعنى الصحيح للدين والعبادة وعن بطلان كل من الشرك وعبادة الأصنام . لقد قضت البشرية ردحاً من الزمن ، تدين بالعبادة للحجارة والأصنام والطواغيت وتنشئ لها المعابد ، ولقد آن لها أن تدرك بطلان كل ذلك وزيفه ، وآن لها أن تستعيض عن تلك المعابد هذا الرمز الجديد .. هذا المعبد الذي أقيم لعبادة الله وحده ، يدخله الإنسان ليقف عزيزاً لا يخضع

ولا يذل إلا لخالق الكون كله ، وإذا كان لا بدّ للمؤمنين بوحدانية الله والداخلين في دينه من رابطة يتعارفون بها ، ومثابة يؤوبون إليها ، مهما تفرقت بلدانهم وتباعدت ديارهم واختلفت أجناسهم ولغاتهم ، إذا كان لا بدّ من ذلك فليس أجدر من هذا البيت الذي أقيم رمزاً لتوحيد الله ، وردّاً على باطل الشرك والأصنام ، أن يكون هو الرابطة وهو المثابة لهم جميعاً ، يتعارفون في حماه ، ويلتقون على الحق الذي شيّد ليكون تعبيراً عنه . فهو الشعار الذي يجسد وحدة المسلمين في أقطار الأرض ، ويعبر عن توحيد الله والعبادة له وحده مهما أقيم من آلهة زائفة وانتصب من متألهين باطلين على مرّ الأزمنة والعصور .

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وإذْ جَعَلْنا البيتَ مَثابةً للنّاسِ وأمناً ، واتّخِذُوا مِنْ مَقامِ إبراهيمَ مُصلّى ﴾ [البقرة ١٢٥/٢] ، وهذا هو المعنى الذي يلحظه الطائف بالبيت الحرام ، بعد أن يملأ قلبه من معنى العبودية لله تعالى والقصد إلى تحقيق أوامره من حيث إنها أوامر ومن حيث إنه عبد مكلّف بتلبية الأمر وتحقيق المأمور به . ومن هنا جاءت قداسة البيت وعظم مكانته عند الله تعالى وكانت ضرورة الحج إليه والطواف من حوله .

ثانيها : بيان أهم ماتعاقب على الكعبة من الهدم والبناء .

بنيت الكعبة خلال الدهر كله ، أربع مرات بيقين ، ووقع الخلاف والشك فيما قبل هذه المرات الأربع وبعدها .

فأما المرة الأولى منها : فهي التي قام بأمر البناء فيها إبراهيم عليه الصلاة والسلام يعينه ابنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، وذلك استجابة منه لأمر ربّه جلّ جلاله ، ثبت ذلك بصريح الكتاب والسُّنة الصحيحة . أما الكتاب فقوله :

﴿ وإذْ يَرفعُ إبراهيمُ القواعِدَ مِنَ البيتِ وإسماعيلُ ، ربَّنا تقبَّلْ مِنّا إنّكَ أنْتَ السَّميعُ العليمُ ﴾ [البقرة ١٢٧/٢] .

وأما السُّنة : فأحاديث كثيرة ، منها ما رواه البخاري بسنده عن ابن عباس ، وجاء فيه : « .. ثم قال ـ أي إبراهيم ـ ياإسماعيل ، إن الله أمرني بأمر ، قال فاصنع ماأمرك ربك ، قال وتعينني ؟ قال : وأعينك . قال : فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتاً ، وأشار إلى أكَمَة

مرتفعة على ماحولها ، قال فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني .. »[١٢] .

ونقل الزركشي عن تاريخ مكة للأزرقي أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام جعل طول بناء الكعبة في السماء سبعة أذرع وطولها في الأرض ثلاثين ذراعاً وعرضها في الأرض اثنين وعشرين ذراعاً وكانت بغير سقف[١٣] ، وحكى السهيلي أن طولها في السماء كان تسعة أذرع[١٤] . أقول ولعل هذه أقرب من رواية الأزرقي .

وأما المرة الثانية : فهي تلك التي بنتها قريش قبل الإسلام ، واشترك في بنائها النّبي ﷺ كما ذكرنا . فجعلوا طولها في السماء ثمانية عشر ذراعاً ، ونقصوا من طولها في الأرض ستة أذرع وجزءاً من الذراع تركوها في الحجر[١٥] .

وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ فيما روته عائشة : « ياعائشة لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدّم فأدخلت فيه ماأخرج منه وألزقته بالأرض وجعلت له باباً شرقياً وباباً غربياً فبلغت به أساس إبراهيم »[١٦] .

وأما المرة الثالثة : فقد كانت عندما احترق البيت زمن يزيد بن معاوية حين غزتها جيوشه من أهل الشام ، وخلاصة ذلك أنهم حاصروا عبد الله بن الزبير بمكة بقيادة الحصين بن نمير السكوني في آخر سنة ست وثلاثين هجرية ، بأمر من يزيد ، ورموا البيت بالمنجنيق ، فتهدم واحترق ، فانتظر ابن الزبير حتى قدم الناس الموسم ، فاستشارهم قائلاً : أيها الناس أشيروا عليّ في الكعبة ، أنقضها ثم أبني بناءها أو أصلح ماوهى منها ، فقال له ابن عباس : أرى أن تصلح ماوهى منها وتدع بيتاً أسلم الناس عليه وأحجاراً أسلم الناس عليها . فقال ابن الزبير : لوكان أحدكم احترق بيته مارضي حتى يُجِدّه فكيف بيت ربّكم ؟! إني مستخير ربّي ثلاثاً ثم عازم على أمري . ثم باشر نقضه بعد ثلاثة أيام حتى بلغوا به الأرض

---

(١٢) صحيح البخاري : كتاب أحاديث الأنبياء باب قوله تعالى : ﴿ واتّخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ .

(١٣) انظر إعلام الساجد للزركشي : ٤٦

(١٤) عيون الأثر : ٥٢/١

(١٥) روى ذلك البخاري في كتاب الحج باب فضل مكة وانظر إعلام الساجد للزركشي : ٤٦

(١٦) متفق عليه واللفظ للبخاري .

فأقام ابن الزبير أعمدة من حوله وأرخى عليها الستور ثم باشروا في رفع بنائه وزاد فيه الأذرع الستة التي قد أخرجت منه ، وزاد في طوله إلى السماء عشرة أذرع ، وجعل له بابين أحدهما يدخل منه والآخر يخرج منه . وإنما جرّأه على إدخال هذه الزيادة حديث عائشة السابق عن رسول الله ﷺ[17] .

وأما المرة الرابعة : فقد كانت بعد مقتل ابن الزبير . روى الإمام مسلم بسنده عن عطاء أنه لما قتل ابن الزبير كتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يخبره بذلك ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أسٍّ نظر إليه العدول من أهل مكة ، فكتب إليه عبد الملك إنا لسنا من تلطيخ ابن الزبير في شيء ، أمّا ما زاد في طوله فأقِرّه ، وأمّا ما زاد فيه من الحجر فردّه إلى بنائه ، وسُدّ الباب الذي فتحه ، فنقضه وأعاده إلى بنائه[18] .

قالوا : وقد عزم الرشيد بعد ذلك على أن ينقضها ويعيدها كما بناها ابن الزبير ، فقال له مالك بن أنس رحمه الله : « أنشدك الله ياأمير المؤمنين أن لا تجعل هذا البيت ملعبة للملوك بعدك ، لا يشاء أحد منهم أن يغيّره إلا غيّره ، فتذهب هيبته من قلوب الناس ، فصرفه عن رأيه فيه »[19] .

فهذه هي المرات الأربع التي بنيت فيها الكعبة بيقين .

أما الخامسة : التي وقع فيها الشك والخلاف : فهي تتعلق بما قبل بناء إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، هل كانت الكعبة مبنية قبل ذلك أم لا ؟

جاء في بعض الآثار والروايات أن أول من بناها إنما هو آدم عليه الصلاة والسلام ،

---

(١٧) انظر عيون الأثر لابن سيّد الناس : ٥٣/١ ، وإعلام الساجد للزركشي : ٤٦ . والحديث رواه مسلم ٢ : ٦٩ ، باب نقض الكعبة وبنائها ، وفي رواية للطبري وغيره أنها إنما احترقت بشرارة انطلقت إليها من نار كانت توقد حولها وانظر تاريخ الطبري : ٤٩٨/٥

(١٨) مسلم : ٩٩/٤

(١٩) هذا وفي شرح النووي على مسلم والفتح على البخاري ، أن الذي همّ بنقض الكعبة هو الرشيد ، وذكر في عيون الأثر وإعلام الساجد أنه أبو جعفر المنصور ، ومعلوم أن مالكاً رحمه الله عاصر كلاً من المنصور وهارون الرشيد ، فالاحتمال قائم .

ومن أبرز ماورد في ذلك ماورواه البيهقي في دلائل النّبوة من حديث عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « بعث الله عزّ وجلّ جبريل ﷺ إلى آدم وحواء فقال لهما : ابنيا لي بيتاً ، فخطّ لهما جبريل عليه الصلاة والسلام ، فجعل آدم يحفر وحواء تنقل حتى أصابه الماء فنودي من تحته حسبك ياآدم فلما بنياه أوحى الله إليه أن يطوف به ، وقيل له أنت أول الناس وهذا أول بيت ، ثم تناسخت القرون حتى حجه نوح ﷺ . ثم تناسخت القرون حتى رفع إبراهيم القواعد منه » .

ثم قال البيهقي : تفرد به ابن لهيعة هكذا مرفوعاً ، ومعلوم أن ابن لهيعة ضعيف لا يحتج به . وهنالك روايات وآثار أخرى قريبة في المعنى من هذا الذي رواه البيهقي إلا أن جميعها لا يخلو من ضعف أو نكارة . وقيل أيضاً أن أول من بناه شيث عليه الصلاة والسلام .

فتكون الكعبة ـ إذا اعتمدنا هذه الآثار والروايات الضعيفة ـ قد بنيت خمس مرات خلال الدهر كله .

غير أن الأولى هو اعتماد ماثبت يقيناً من ذلك ، وهو أنها بنيت أربع مرات كما أوضحنا ، وأما ماوراء ذلك وما بين هذه المرات فنكل علمه إلى الله عزّ وجلّ ، عدا عما لحقها من ترميمات وإصلاحات بعد ذلك .

ثالثها : مدى حكمة النّبي ﷺ في تدبير الأمور ، وسياسة القضايا ، وقطع دابر الخصومات ، وبين من ؟ بين أقوام قلما قامت بينهم خصومة ثم نامت قبل أن تراق فيما بينهم بسببها الدماء . وقد وصل بهم الخلاف كما تعلم إلى درجة كاد أن ينشب فيما بينهم القتال ، فقد قربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ثم تعاقدوا هم وبنو عدي على الموت ، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم ، ومكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً ، دون أن يردها إلى الوفاق أي رأي أو تدبير ، حتى كان خمود نار الفتنة على يد رسول الله ﷺ . ونحن ينبغي أن نحيل هذه المزية فيه عليه الصلاة والسلام ، إلى مااختاره الله له من القيام بعبء الرسالة والنّبوة ، قبل أن نحيلها إلى العبقرية التي جبل عليها والذكاء الذي فطر عليه .

فـالأسـاس الأول في تكوينـه عليـه الصلاة والسلام ، أنـه رسول ونبي . ثم تـأتي المزايـا الأخرى كلها من عبقرية ودهاء وذكاء مبنية على هذا الأساس ولاحقة به .

رابعها : مدى سمو منزلتـه بين رجـال قريش على اختلاف درجـاتهم وطبقـاتهم ، فقـد كان ملقباً عندهم بالأمين ، وكان محبوباً منهم كلهم ، وكانوا لا يرتابون في صدقـه إذا حـدث ، وفي كريم أخلاقه إذا عومل ، وفي عظيم إخلاصه إذا مااستعين به واعتمد عليه .

وهذه ظـاهرة تكشف لـك عن مـدى الحقـد والعنـاد اللـذَيْن امتلأت بهما أفئـدة هؤلاء أنفسهم ، بعد أن جاءته الرسالة من عند الله ، وأخـذ يبلغهـا إلى هؤلاء الأقوام الـذين قـابلوه بالتكذيب والعناد والإيذاء .

اختلاؤه في غار حراء

ولما أخذت سنّه تدنو نحو الأربعين ، نشأ لديه حب للعزلـة بين الفترة والأخرى ، وحبب الله إليـه الاختلاء في غـار حراء ـ وحراء جبل يقـع في جـانب الشمال الغربي من مكـة ـ فكان يخلـو فيـه ، ويتعبـد فيـه الليـالي ذوات العدد ، فتارة عشرة وتارة أكثر من ذلك إلى شهر ، ثم يعود إلى بيته فلا يكاد يمكث فيه قليلاً حتى يتزود من جديد لخلوة أخرى ويعود الكرة إلى غار حراء ، وهكذا إلى أن جاءه الوحي وهو في إحدى خلواته تلك .

العبر والعظات :

إن لهذه الخلوة التي حببت إلى قلب رسول الله ﷺ قبيل البعثة ، دلالة عظيمة جـداً ، لها أهمية كبرى في حياة المسلمين عامة والداعين إلى الله بصورة خاصة .

فهي توضح أن المسلم لا يكمل إسلامه مهما كان متحلياً بالفضائل قائماً بألوان العبادات ، حتى يجمع إلى ذلك ساعات من العزلـة والخلوة يحـاسب فيهـا النفس ، ويراقب الله تعـالى ، ويفكر في مظاهر الكون ، ودلائل ذلك على عظمة الله .

هذا في حق أي مسلم يريد لنفسه الإسلام الصحيح ، فكيف بمن يريـد أن يضع نفسـه موضع الداعي إلى الله والمرشد إلى الطريق الحق .

وحكمة ذلك أن للنفس آفات لا يقطع شرتها إلا دواء العزلة عن الناس ، ومحاسبتهـا في نجوة من ضجيج الدنيا ومظاهرها . فالكبر ، والعجب والحسـد ، والريـاء ، وحبّ الـدنيـا ،

كل ذلـك آفـات من شـأنهـا أن تتحكم في النفس وتتغلغـل إلى أعمـاق القلب ، وتعمـل عملهـا التهديمي في باطن الإنسان على الرغم مما قد يتحلى به ظاهره من الأعمال الصالحـة والعبـادات المبرورة ، ورغم ماقـد ينشغل بـه ، من القيـام بشؤون الـدعوة والإرشـاد وموعظـة النـاس . وليس لهذه الآفات من دواء إلا أن يختلي صـاحبهـا بين كل فترة وأخرى مع نفسـه ليتـأمل في حقيقتها ومُنشئها ومدى حاجتهـا إلى عنـايـة الله تعـالى وتوفيقـه في كل لحظـة من لحظـات الحياة ، ثم ليتأمل في الناس ومدى ضعفهم أمام الخالق عزّ وجلّ وفي عدم أي فـائـدة لمـدحهم أوَ قدحهم ، ثم ليتفكر في مظاهر عظمة الله وفي اليوم الآخر وفي الحساب وطوله ، وفي عظيم رحمة الله وعظيم عقابه . فعند التفكير الطويل المتكرر في هذه الأمور تتساقط تلـك الآفـات اللاحقة بالنفس ويحيا القلب بنور العرفان والصفـاء ، فلا يبقى لعكر الـدنيـا من سبيل إلى تكدير مرآته .

وشيء آخر له بالغ الأهمية في حياة المسلمين عامة وأرباب الـدعوة خـاصـة : هو تربيـة محبـة الله عـزّ وجـلّ في القلب . فهـو منبـع التضحيـة والجهـاد وأسـاس كل دعـوة متـأججـة صحيحة ، ومحبة الله تعالى لاتأتي من مجرد الإيمـان العقلي بـه ، فـالأمور العقلانيـة وحـدهـا مـا كانت يومـاً مـا لتؤثر في العـواطف والقلـوب . ولـو كان كـذلـك ، لكان المستشرقـون في مقدمة المؤمنين بالله ورسولـه ، ولكانت أفئدتهم من أشد الأفئدة حبّـاً لله ورسولـه . أو سمعت بأحد من العلماء ضحى بروحه إيماناً منه بقاعدة رياضية أو مسألة من مسائل الجبر ؟!.

وإنمـا الـوسيلـة إلى محبـة الله تعـالى ـ بعـد الإيمـان بـه ـ كثرة التفكير في آلائـه ونعمـه والتأمل في مدى جلاله وعظمته ، ثم الإكثار من ذكره سبحانـه وتعـالى بـالقلب واللسـان . وإنما يتم كل ذلك بالعزلة والخلوة والابتعاد عن شواغل الدنيا وضوضـائهـا في فترات متقطعـة متكررة من الزمن .

فإذا قام المسلم بذلك وتهيأ له أداء هذه الوظيفة ، نبتت له من ذلك في قلبه محبـة إلهيـة عارمة ، تجعله يستصغر كل عظيم ، ويحتقر كل مغرية من المغريـات ، ويستهين بكل إيـذاء وعـذاب ، ويستعلي فـوق كل إذلال أو استهـزاء . فتلـك هي العـدة الكبرى التي ينبغي أن يتسلح بها الدعاة إلى الله ، وتلك هي العدة التي جهز الله بها حبيبه محمـداً ﷺ ليقوم بـأعبـاء الدعوة الإسلامية .

ذلك لأن الدوافع الوجدانية في القلب من خوف ومحبة ورجاء تفعل مـا لا يفعلـه الفهم العقلي المجرد . ولقد أجاد الشاطبي رحمه الله حينمـا فرق في هـذه الـدوافع بين عـامـة المسلمين الذين دخلوا في ربقـة التكاليف بـدافع من عموم إسلامهم ، وخواصهم الـذين دخلوا في ربقـة هذه التكاليف يسوقهم ما هو أشد من مجرد التعقل والفهم . يقول :

« فالضرب الأول حاله حال من يعمل بحكم عهد الإسلام وعقد الإيمـان من غير زائـد ، والثاني حاله حـال من يعمل بحكم غلبـة الخوف والرجـاء أو المحبـة ، فـالخوف سوط سـائق ، والرجاء حاد قائد ، والمحبة تيار حـامل ، فـالخـائف يعمل مع وجود المشقـة ، غير أن الخوف مـا هو أشق يحمل على الصبر على مـا هو أهون وإن كان شـاقـاً . والراجي يعمل مـع وجـود المشقة أيضاً ، غير أن الرجاء في تمام الراحـة يحمل على الصبر على تمـام التعب . والمحب يعمل ببـذل المجهود شوقـاً إلى المحبوب ، فيسهل عليـه الصعب ويقرب عليـه البعيـد ، وتفنى القوى ولا يرى أنه أوفى بعهد المحبة ولا قام بشكر النعمة »[٢٠] .

واتّخاذ الوسائل المختلفة لتحقيق هذه الدوافع الوجدانية في القلب مما أجمع المسلمون على ضرورته ، وهو مـا يسمى بـالتصوف عنـد جمهـور العلمـاء والبـاحثين ، أو بـالإحسـان عنـد بعضهم ، أو بعلم السلوك عند بعض آخر كالإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى[٢١] .

والاختلاء الذي كان يمارسه ﷺ قبيل بعثتـه كان واحـدة من هـذه الوسـائل لتحقيق هذه الدوافع نفسها .

بيد أنـه لا ينبغي أن يفهم معنى الخلوة كما شذّ البعض ففهموهـا حسب شـذوذهم ، وهو الانصراف الكلي عن الناس واتّخاذ الكهوف والجبال موطناً واعتبار ذلك فضيلة بحدّ ذاتها .

---

(٢٠) الموافقات للشاطبي : ١٤١/٢ ، وراجع كتاب (ضوابط المصلحـة في الشريعـة الإسلاميـة) لمؤلف هذا الكتاب : ص ١١١ ـ ١١٢

(٢١) انظر الجزء العاشر من فتاوى الشيخ ابن تيمية رحمه الله ، لتجد قيمـة التصوف الحقيقي عنـد هـذا الإمام الجليل ، ولتعلم كم يفتري عليه أولئك الذين يحاولون ترويج بـاطلهم عن طريق إلصـاقـه باسمه .

فذلك مخالف لهديه ﷺ ولما كان عليه عامة أصحابه . إنما المراد هو استحباب اتخاذ الخلوة دواءً لإصلاح الحال كما ذكرنا ، والدواء لا ينبغي أن يؤخذ إلا بقدر ، وعند اللزوم ، وإلاّ انقلب إلى داء ينبغي التوقي منه . وإذا رأيت في تراجم الصالحين من استمر على الخلوة والابتعاد عن الناس ، فمردّ ذلك إلى حالة خاصة به ، وليس عمله حجة على الناس .

بدء الوحي

روى الإمام البخاري عن السيدة عائشة تصف كيفية بدء الوحي وتقول :

« أول مابدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلاّ جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال له اقرأ ، فقال ماأنا بقارئ ، قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ماأنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال : اقرأ باسم ربّك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربُّك الأكرم الذي علّم بالقلم ، علّم الإنسان مالم يعلم ، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده . فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال : زملوني ، زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي ، فقالت خديجة : كلا والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل

وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ، وكان ابن عم خديجة ، وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل في العبرانية ماشاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي . فقالت له خديجة : يا ابن عم ، اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس (أي جبريل أو الوحي) الذي نزل على موسى ياليتني فيها جذعاً (شاباً قوياً) ليتني أكون حيّاً إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله ﷺ : أوَمخرجيّ هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً . ثم لم يلبث ورقة أن توفي وفتر الوحي .

واختلف في الزمن الذي فتر فيه الوحي فقيل ثلاث سنوات ، وقيل أقل من ذلك ، والراجح ما رواه البيهقي من أن المدة كانت ستة أشهر[٢٢] .

ثم روى البخاري عن جابر بن عبد الله قال وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه : « بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت بصري ، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه ، فرجعت فقلت : زملوني ، زملوني ، فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ يا أيُّها الْمُدَّثِّر ، قُمْ فأنْذِرْ ﴾ إلى قوله : ﴿ والرُّجْزَ فاهْجُرْ ﴾ فحمي الوحي وتواتر » .

---

(٢٢) راجع فتح الباري : ٢١/١

العبر والعظات :

حديث بدء الوحي هذا ، هو الأساس الذي يترتب عليه جميع حقائق الدين بعقائده وتشريعاته . وفهمه واليقين به هما المدخل الذي لابدّ منه إلى اليقين بسائر ماجاء به النّبي ﷺ من إخبارات غيبية وأوامر تشريعية ذلك أن حقيقة (الوحي) هي الفيصل الوحيد بين الإنسان الذي يفكر من عنده ويشرع بواسطة رأيه وعقله ، والإنسان الذي يبلغ عن ربّه دون أن يغيّر أو ينقص أو يزيد .

من أجل هذا يهتم محترفو التشكيك بالإسلام ، بمعالجة موضوع الوحي في حياته ﷺ ، ويبذلون جهداً فكرياً شاقّاً ، في تكلّف وتمحل ، من أجل التلبيس في حقيقته والخلط بينه وبين الإلهام ، وحديث النفس ، بل وحتى الصرع أيضاً . وذلك لعلمهم بأن موضوع (الوحي) هو منبع يقين المسلمين وإيمانهم بما جاء به محمد ﷺ من عند الله . فلئن أتيح تشكيكهم بحقيقته ، أمكن تكفيرهم بكل ماقد يتفرع عنه من عقائد وأحكام ، وأمكنهم أن يمهدوا لفكرة أن كل مادعا إليه محمد ﷺ من المبادئ والأحكام التشريعية ليس إلا من تفكيره الذاتي .

من أجل هذه الغاية ، أخذ محترفو الغزو الفكري ، يحاولون تأويل ظاهرة الوحي وتحريفها عما يرويه لنا المؤرخون وتحدث به صحاح السّنة الشريفة ، وإبعادها عن حقيقتها الظاهرة وراح كل منهم يسلك إلى ذلك ما يروق لخياله من فنون التصورات المتكلفة الغريبة .

فمن متصور بأن محمداً عليه الصلاة والسلام لم يزل يفكر .. إلى أن تكونت في نفسه بطريقة الكشف التدريجي المستمر عقيدة كان يراها الكفيلة بالقضاء على الوثنية ، ومن مفضل على ذلك إشاعة القول بأنه ﷺ إنما تعلم القرآن ومبادئ الإسلام من بحيرا الراهب ، ومن قائل بأن الأمر ليس هذا ولا ذاك ولكن محمداً ﷺ كان رجلاً عصبياً أو مصاباً بداء الصرع[٢٣] .

---

(٢٣) راجع حاضر العالم الإسلامي : ٣٨/١ و ٣٩

ونحن حينما ننظر إلى مثل هذه التمحلات العجيبة التي لا يرى العاقل مسوغاً لها إلا التهرب من الإقرار بنبوته عليه الصلاة والسلام ، ندرك في جلاء ووضوح الحكمة الإلهية الباهرة من بدء نزول الوحي عليه ﷺ بهذه الطريقة التي استعرضناها الآن ، في حديث الإمام البخاري .

لماذا رأى رسول الله جبريل بعيني رأسه لأول مرة ، وقد كان بالإمكان أن يكون الوحي من وراء حجاب ؟

لماذا قذف الله في قلبه عليه الصلاة والسلام الرعب منه والحيرة في فهم حقيقته ، وقد كان ظاهر محبة الله لرسوله وحفظه له يقتضي أن يلقي السكينة في قلبه ويربط على فؤاده فلا يخاف ولا يرتعد ؟ لماذا خشي على نفسه أن يكون هذا الذي تمثل له في الغار أتياً من الجن ، ولم يرجح على ذلك أن يكون ملكاً أميناً من عند الله ؟

لماذا انفصل الوحي عنه بعد ذلك مدة طويلة ، وجزع النّبي ﷺ بسبب ذلك جزعاً عظيماً حتى إنه كان يحاول ـ كما يروي الإمام البخاري ـ أن يتردى من شواهق الجبال ؟

هذه أسئلة طبيعية بالنسبة للشكل الذي ابتدأ به الوحي ، ولدى التفكير في أجوبتها نجدها تنطوي على حكمة باهرة ، ألا وهي أن يجد المفكر الحر فيها الحقيقة الناصعة الواقية عن الوقوع في شرك محترفي الغزو الفكري والتأثر بأخيلتهم المتكلفة الباطلة .

لقد فوجئ محمد عليه الصلاة والسلام وهو في غار حراء بجبريل أمامه يراه بعينه ، وهو يقول له اقرأ ، حتى يتبين أن ظاهرة الوحي ليست أمراً ذاتياً داخلياً مردّه إلى حديث النفس المجرد ، وإنما هي استقبال وتلقٍّ لحقيقة خارجية لا علاقة لها بالنفس وداخل الذات . وضمّ الملك إياه ثم إرساله ثلاث مرات قائلاً في كل مرة : اقرأ ، يعتبر تأكيداً لهذا التلقّي الخارجي ومبالغة في نفي ماقد يتصوّر ، من أن الأمر لا يعدو كونه خيالاً داخلياً فقط .

ولقد داخله الخوف والرعب مما سمع ورأى ، حتى إنه قطع خلوته في الغار وأسرع عائداً إلى البيت يرجف فؤاده ، لكي يتضح لكل مفكر عاقل أن رسول الله ﷺ لم يكن متشوفاً للرسالة التي سيُدعى إلى حملها وبثّها في العالم ، وأن ظاهرة الوحي هذه لم تأت منسجمة أو متممة لشيء مما قد يتصوره أو يخطر في باله ، وإنما طرأت طروءاً مثيراً على

حياته ، وفوجئ بها دون أي توقع سابق . ولا شك أن هذا ليس شأن من يتدرج في التأمل والتفكير إلى أن تتكون في نفسه ـ بطريقة الكشف التدريجي المستمر ـ عقيدة يؤمن بالدعوة إليها !..

ثم إن شيئاً من حالات الإلهام أو حديث النفس أو الإشراق الروحي أو التأملات العلوية ، لا يستدعي الخوف والرعب وامتقاع اللون . وليس ثمة أي انسجام بين التدرج في التفكير والتأمل من ناحية ، ومفاجأة الخوف والرعب من ناحية أخرى . وإلا لاقتضى ذلك أن يعيش عامة المفكرين والمتأملين نهباً لدفعات من الرعب والخوف المفاجئة المتلاحقة .

وأنت خبير أن الخوف والرعب ورجفان الجسم وتغير اللون ـ كل ذلك من الانفعالات القسرية التي لاسبيل إلى اصطناعها والتمثيل بها ـ حتى لوفرضنا إمكان صدور المخادعة والتمثيل منه عليه الصلاة والسلام ، وفرضنا المستحيل من انقلاب طباعه المعروفة قبل البعثة إلى عكس ذلك .

ويتجلى مزيد من صورة المفاجأة المخيفة لديه ﷺ ، في توهمه بأن هذا الذي رآه وغطّه وكلّمه في الغار قد يكون أتيّاً من الجن ، إذ قال لخديجة بعد أن أخبرها الخبر : « لقد خشيت على نفسي » أي من الجانّ . ولكنها طمأنته بأنه ليس ممن يطولهم أذى الشياطين والجان لما فيه من الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة .

وقد كان الله عزّ وجلّ قادراً أن يربط على قلب رسوله ويطمئن نفسه بأن هذا الذي كلّمه ليس إلا جبريل : ملك من ملائكة الله جاء ليخبره أنه رسول الله إلى الناس ، ولكن الحكمة الإلهية اقتضت إظهار الانفصال التام بين شخصية محمد ﷺ قبل البعثة وشخصيته بعدها ، وبيان أن شيئاً من أركان العقيدة الإسلامية أو التشريع الإسلامي لم يطبخ في ذهن الرسول عليه الصلاة والسلام سابقاً ولم يتصور الدعوة إليه سلفاً .

ثم إن فيما ألهم الله خديجة من الذهاب به عليه الصلاة والسلام إلى ورقة بن نوفل ، وعَرْض الأمر عليه تأكيداً من جانب آخر بأن هذا الذي فوجئ به عليه الصلاة والسلام إنما هو الوحي الإلهي الذي كان قد أنزل على الأنبياء من قبله ، وإزالةً لغاشية اللبس التي كانت تحوم حول نفسه بالخوف والتصورات المختلفة عن تفسير ما رآه وسمعه .

أما انقطاع الوحي بعد ذلك ، وتلبّثه ستة أشهر أو أكثر ، على الخلاف المعروف فيه ، فينطوي على مثل المعجزة الإلهية الرائعة . إذ في ذلك أبلغ الرّد على ما يفسر به محترفو الغزو الفكري الوحي النّبوي من أنه الإشراق النفسي المنبعث لديه من طول التأمل والتكرار ، وأنه أمر داخلي منبعث من ذاته نفسها .

لقد قضت الحكمة الإلهية أن يحتجب عنه الملك الذي رآه لأول مرة في غار حراء ، مدة طويلة ، وأن يستبدّ به القلق من أجل ذلك ، ثم يتحول القلق لديه إلى خوف في نفسه من أن يكون الله عزّ وجلّ قد قلاه بعد أن أراد أن يشرّفه بالوحي والرسالة ، لسوء قد صدر منه ، حتى لقد ضاقت الدنيا عليه وراحت تحدثه نفسه ، كلما وصل إلى ذروة جبل ، أن يلقي بنفسه منها !.. إلى أن رأى ذات يوم الملك الذي رآه في حراء ، وقد ملأ شكله ما بين السماء والأرض يقول : « يا محمد أنت رسول الله إلى الناس » . فعاد مرة أخرى وقد استبدّ به الخوف والرعب إلى البيت ، حيث نزل عليه قوله تعالى : ﴿ يا أيُّها الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فأنْذِرْ .. ﴾ [المدثر ١/٧٤ ـ ٢] .

إن هذه الحالة التي مرّ بها رسول الله ﷺ ، تجعل مجرّد التفكير في كون الوحي إلهاماً نفسياً ، ضرباً من الجنون ، إذ من البداهة بمكان أن صاحب الإلهامات النفسية والتأملات الفكرية لا يمر إلهامه أو تأمله بمثل هذه الأحوال .

إذن فإن حديث بدء الوحي على النحو الذي ورد في الحديث الثابت الصحيح ، ينطوي على تهديم كل ما يحاول المشككون تخييله إلى الناس في أمر الوحي والنبوة التي أكرم الله بها محمداً عليه الصلاة والسلام . وإذا تبين لك ذلك أدركت مدى الحكمة الإلهية العظيمة في أن تكون بداءة الوحي على النحو الذي أراده عزّ وجلّ .

وربما عاد بعد ذلك محترفو التشكيك ، يسألون : فلماذا كان ينزل عليه ﷺ الوحي بعد ذلك وهو بين الكثير من أصحابه فلا يرى الملكَ أحد منهم سواه ؟

والجواب : أنه ليس من شرط وجود الموجودات أن تُرى بالأبصار ، إذ إن وسيلة الإبصار فينا محدودة بحدّ معين ، وإلاّ لاقتضى ذلك أن يصبح الشيء معدوماً إذا ابتعد عن البصر بعداً يمنع من رؤيته . على أن من اليسير على الله جلّ جلاله ـ وهو الخالق لهذه

العيـون المبصرة ـ أن يـزيـد في قـوة مـاشـاء منهـا فيرى مـالا تراه العيـون الأخرى ، يقـول مالك بن نبي في هذا الصدد :

« إن عمى الألوان مثلاً يقدم لنا حـالـة نموذجيـة ، لا يمكن أن ترى فيهـا بعض الألوان بالنسبـة لكل العيون ، وهنـالـك أيضـاً مجموعـة من الإشعـاعـات الضوئيـة دون الضوء الأحمر وفوق الضوء البنفسجي لا تراهـا أعيننـا ، ولا شيء يثبت علميـاً أنهـا كـذلـك بـالنسبـة لجميع العيون ، فقد توجد عيون يمكن أن تكون أقل أو أكثر حساسية »[٢٤] .

ثم إن استمرار الوحي بعد ذلك يحمل الـدلالـة نفسهـا على حقيقـة الوحي وأنـه ليس كما أراد المشككون : ظاهرة نفسية محضة . ونستطيع أن نجمل هذه الدلالة فيما يلي :

١ ـ التميز الواضح بين القرآن والحديث ، إذ كان يأمر بتسجيل الأول فوراً ، على حين يكتفي بأن يستودع الثاني ذاكرة أصحابه ، لا لأن الحـديث كلام من عنـده لا علاقـة للنّبوة به ، بل لأن القرآن موحى به إليه بنفس اللفظ والحروف بواسطة جبريل عليه السلام . أمـا الحـــديث فمعنـــاه وحي من الله عـزّ وجـلّ ، ولكن لفظـــه وتركيبـــه من عنـــده عليه الصلاة والسلام ، فكان يحـاذر أن يختلـط كلام الله عزّ وجلّ الـذي يتلقـاه من جبريل بكلامه هو .

٢ ـ كان النّبي ﷺ يُسأل عن بعض الأمور ، فلا يُجيب عليها ، وربّما مرّ على سكوتـه زمن طويل ، حتى إذا نزلت آية من القرآن في شأن ذلك السؤال ، طلب السـائل وتلا عليـه مـانزل من القرآن في شـأن سؤالـه . وربمـا تصرف الرسول في بعض الأمور على وجـه معين ، فتنزل آيات من القرآن تصرفه عن ذلك الوجه ، وربما انطوت على عتب أو لوم له .

٣ ـ كان رسـول الله ﷺ أُميّـاً .. وليس من الممكن أن يعلم إنسـان بـواسطـة المكاشفـة النفسية حقائق تاريخية ، كقصة يوسف .. وأم موسى حينمـا ألقت وليـدهـا في اليمّ .. وقصـة فرعون .. ولقد كان هذا من جملة الحكم في كونه ﷺ أُميّاً : ﴿ ومـا كُنتَ تَتلُو مِنْ قَبْلِـهِ مِنْ كِتابٍ ولا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إذاً لارتابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت ٤٨/٢٩] .

---

(٢٤) الظاهرة القرآنية : ١٢٧

٤ ـ إن صدق النّبي ﷺ أربعين سنة مع قومه واشتهاره فيهم بذلك ، يستدعي أن يكون ﷺ ، من قبل ذلك ، صادقاً مع نفسه ، ولذا فلابدّ أن يكون قد قضى في دراسته لظاهرة الوحي على أي شك يخايل لعينيه أو فكره .

وكأن هذه الآية جاءت ردّاً لدراسته الأولى لشأن نفسه مع الوحي : ﴿ فإنْ كُنتَ في شكٍّ مِمّا أنْزَلْنا إليكَ فاسألِ الّذِينَ يَقْرؤونَ الكتابَ مِنْ قَبْلِكَ . لَقَدْ جاءَكَ الحقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تكونَنّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ [يونس ١٠/٩٤] .

ولذا روي أن النّبي ﷺ قال بعد نزول هذه الآية : « لاأشك ولا أسأل »[٢٥] .

---

(٢٥) رواه ابن كثير عن قتادة .

مراحل الدّعوة الإسلاميّة في حياة النّبي ﷺ

مرّت الدّعوة الإسلامية في حياته عليه الصلاة والسلام ، منذ بعثته إلى وفاته بأربع مراحل :

المرحلة الأولى : الدّعوة سرّاً ، واستمرت ثلاث سنوات .

المرحلة الثانية : الدّعوة جهراً ، وباللسان فقط ، واستمرت إلى الهجرة .

المرحلة الثالثة : الدّعوة جهراً ، مع قتال المعتدين والبادئين بالقتال أو الشّر ، واستمرت هذه المرحلة إلى عام صلح الحديبية .

المرحلة الرابعة : الدّعوة جهراً مع قتال كل من وقف في سبيل الدعوة أو امتنع عن الدخول في الإسلام ـ بعد فترة الدعوة والإعلام ـ من المشركين أو الملاحدة أو الوثنيين .

وكانت هذه المرحلة هي التي استقر عليها أمر الشريعة الإسلامية وقام عليها ، حكم الجهاد في الإسلام .

الدّعوة سرّاً

بدأ النّبي ﷺ يستجيب لأمر الله ، فأخذ يدعو إلى عباده الله وحده ونبذ الأصنام ، ولكنه كان يدعو إلى ذلك سرّاً حذراً من وقع المفاجأة على قريش التي كانت متعصبة لشركها ووثنيتها ، فلم يكن

عليه الصلاة والسلام يظهر الدّعوة في المجالس العمومية لقريش ، ولم يكن يدعو إلا من كانت تشدّه إليه قرابة أو معرفة سابقة .

وكان في أوائل من دخل الإسلام من هؤلاء : خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، وعلي بن أبي طالب ، وزيد بن حارثة مولاه عليه الصلاة والسلام ومتبنّاه ، وأبو بكر بن أبي قحافة ، وعثمان بن عفان ، والزُّبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص .. وغيرهم ، رضي الله عنهم جميعاً .

فكان هؤلاء يلتقون بالنّبي ﷺ سرّاً ، وكان أحدهم إذا أراد ممارسة عبادة من العبادات ذهب إلى شعاب مكة يستخفي فيها عن أنظار قريش .

ثم لما أربى الذين دخلوا في الإسلام على الثلاثين ـ ما بين رجل وامرأة ـ اختار لهم رسول الله ﷺ دار أحدهم ، وهو الأرقم بن أبي الأرقم ، ليلتقي بهم فيها لحاجات الإرشاد والتعليم ، وكانت حصيلة الدعوة في هذه الفترة ما يقارب أربعين رجلاً وامرأة دخلوا في الإسلام ، عامتهم من الفقراء والأرقاء وممن لاشأن له بين قريش[1] .

العبر والعظات :

١ ـ وجه السرّيّة في بدء دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام :

لا ريب أن تكتُّم النّبي ﷺ في دعوته إلى الإسلام ، خلال هذه السنوات الأولى ، لم

---

(١) راجع للتوسع في هذا البحث سيرة ابن هشام : ٢٤٩/١ ـ ٢٦١

يكن بسبب الخوف على نفسه ، فهو حينما كلف بالدعوة ونزل عليه قوله تعالى : ﴿ يـاأيُّهـا الْمُدَّثِّرْ . قُمْ فأنْذِرْ .. ﴾ علم أنه رسول الله إلى الناس ، وهو لذلك كان يوقن بأن الإلـه الـذي ابتعثه وكلّفـه بهـذه الـدعوة قـادر على أن يحميـه ويعصمـه من النـاس ، على أن الله عزّ وجلّ لوأمره من أول يوم أن يصدع بالدعوة بين الناس علناً ، لما توانى عن ذلك سـاعـة ، ولو كان يتراءى له في ذلك مصرعه .

ولكن الله عزّ وجلّ ألهمه ـ والإلهام للرسول نوع من الوحي إليـه ـ أن يبـدأ الـدعوة ، في فترتها الأولى ، بسرّيّـة وتكَتُّم ، وأن لا يلقى بهـا إلا من يغلب على ظنـه أنـه سيصيخ لهـا ويؤمن بها ، تعليماً للدُّعاة من بعده ، وإرشاداً لهم إلى مشروعية الأخـذ بـالحيطـة والأسبـاب الظـاهرة ، ومـا يقرره التفكير والعقل السليم من الوسـائـل التي ينبغي أن تتخـذ من أجـل الوصول إلى غايات الدعوة وأهـدافهـا . على أن لا يتغلب كل ذلـك على الاعتماد والاتّكال على الله وحده ، وعلى أن لا يذهب الإنسان في التمسك بهذه الأسباب مذهباً يعطيهـا معنى التـأثير والفعالية في تصوُّره وتفكيره . فهذا يخدش أصل الإيمان بالله تعالى ، فضلاً عن أنه يتنافى مع طبيعة الدعوة إلى الإسلام .

ومن هنا تدرك ، أن أسلوب دعوتـه عليـه الصلاة والسلام ، في هـذه الفترة ، كان من قبيل السياسة الشرعية بوصف كونه إماماً ، وليس من أعماله التبليغية عن الله تعـالى بوصف كونه نبيّاً .

وبناءً على ذلـك فـإنـه يجوز لأصحـاب الـدعوة الإسلاميـة ، في كل عصر أن يستعملوا المرونة في كيفية الدعوة ـ من حيث التكتُّم والجهر ، أو اللين والقوة ـ حسبما يقتضيه الظرف وحال العصر الذي يعيشون فيه ، وهي مرونة حددتها الشريعـة الإسلاميـة ، اعتماداً على واقع سيرتـه ﷺ ، ضمن الأشكال أو المراحل الأربعـة التي سبق ذكرهـا ، على أن يكون النظر في كل ذلك إلى مصلحة المسلمين ومصلحة الدعوة الإسلامية .

ومن أجل هـذا أجمع جمهور الفقهـاء على أن المسلمين إذا كانوا من قلـة العـدد أو ضعف العدّة بحيث يغلب الظن أنهم سيُقتلون من غير أي نكاية في أعـدائهم ، إذا مـاأجمعوا قتـالهم ، فينبغي ، أن تقدم هنا مصلحـة حفـظ النفس ، لأن المصلحـة المقـابلـة وهي مصلحـة حفـظ الدّين موهومة أو منفيّة الوقوع .

ويقرّر العزُّ بن عبد السلام حرمة الخوض في مثل هذا الجهاد قائلاً :

« فإذا لم تحصل النكاية وجب الانهزام ، لما في الثبوت من فوات النفس مع شفاء صدور الكفار وإرغام أهل الإسلام ، وقد صار الثبوت هنا مفسدة محضة ، ليس في طيّها مصلحة »[٢] .

قلت : وتقديم مصلحة النفس هنا ، من حيث الظاهر فقط .

أمّا من حيث حقيقة الأمر ومرماه البعيد ، فإنها في الواقع مصلحة دين ، إذ المصلحة الدّينية تقتضي ـ في مثل هذه الحال ـ أن تبقى أرواح المسلمين سليمة لكي يتقدموا ويجاهدوا في الميادين المفتوحة الأخرى . وإلاّ فإن هلاكهم يعتبر إضراراً بالدّين نفسه وفسحاً للمجال أمام الكافرين ليقتحموا ما كان مسدوداً أمامهم من السُّبل .

والخلاصة : أنه يجب المسالمة أو الإسرار بالدعوة إذا كان الجهر أو القتال يضرّ بها ، ولا يجوز الإسرار في الدعوة إذا أمكن الجهر بها وكان ذلك مفيداً ، ولا يجوز المسالمة مع الظالمين والمتربصين بها إذا توفرت أسباب القوة والدفاع عنها ، ولا يجوز القعود عن جهاد الكافرين في عقر دورهم إذا ما توفرت وسائل ذلك وأسبابه .

٢ ـ الأوائل الذين دخلوا في الإسلام والحكمة من إسراعهم إلى الإسلام قبل غيرهم :

وتحدثنا السّيرة أن الذين دخلوا في الإسلام ، في هذه المرحلة ، كان معظمهم خليطاً من الفقراء والضعفاء والأرقاء ، فما الحكمة في ذلك ؟ وما السّر في أن تتأسس الدولة الإسلامية على أركان من مثل هؤلاء الناس ؟

والجواب : إن هذه الظاهرة هي الثمرة الطبيعية لدعوة الأنبياء في فترتها الأولى ، ألم ترَ إلى قوم نوح كيف كانوا يعيّرونه بأن أتباعه الذين من حوله ليسوا إلا من أراذل الناس ودهمائهم : ﴿ مانَراكَ إلا بَشراً مثلَنا وما نَراكَ اتَّبَعَكَ إلاّ الَّذِينَ هُمْ أراذِلُنا باديَ الرَّأيِ .. ﴾ [هود ٢٧/١١] . وإلى فرعون وشيعته كيف كانوا يرون أتباع موسى أذلاء مستضعفين ، حتى

(٢) قواعد الأحكام في مصالح الأنام : ٩٥/١ ، وانظر ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية للمؤلف : ٢٦١

قال عنهم بعد أن تحدث عن هلاك فرعون وأشياعه : ﴿ وأورَثْنا القوم الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الأرْضِ ومَغارِبَها الَّتي بارَكْنا فِيها ﴾ [الأعراف ١٣٧/٧] . وإلى ثمود الذين أرسل الله إليهم صالحاً ، كيف تولى عنه الزعماء المستكبرون ، وآمن به الناس المستضعفون ، حتى قال الله في ذلك : ﴿ قَالَ الملأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ استُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمونَ أنَّ صالحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ؟ قالوا إنّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مؤمِنُونَ ، قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إنّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ ﴾ [الأعراف ٧٥/٧ ـ ٧٦] .

والسّرُّ في ذلك ، أن حقيقة هذا الدّين الذي بعث الله به عامة أنبيائه ورسله ، إنما هي الخروج عن سلطان الناس وحكمهم إلى سلطان الله وحكمه وحده . وهي حقيقة تخدش أول ماتخدش ألوهية المتألهين وحاكمية المتحكمين وسطوة المتزعمين ، وتناسب أول ماتناسب حالة المستضعفين والمستذَلين والمستعبدين ، فيكون ردّ الفعل أمام الدعوة إلى الإسلام لله وحده هو المكابرة والعناد من أولئك المتألهين والمتحكمين ، والإذعان والاستجابة من هؤلاء المستضعفين ، وانظر ، فإن هذه الحقيقة تتجلى لك بوضوح في الحديث الذي دار بين رستم قائد الجيش الفارسي في وقعة القادسية ، وربعي بن عامر الجندي البسيط في جيش سعد بن أبي وقاص . فقد قال له رستم :

« ماالذي دعاكم إلى حربنا والولوع بديارنا ؟

فقال : جئنا لنُخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . ثم نظر إلى صفوف الناس الراكعين عن يمين رستم وشماله ، فقال متعجباً :

لقد كانت تبلغنا عنكم الأحلام ، ولكني لاأرى قوماً أسفه منكم ، إننا معشر المسلمين لا يستعبد بعضنا بعضاً ، ولقد ظننت أنكم تتواسون كما نتواسى ، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب لبعض ..

فالتفت الدهماء المستَضعفون إلى بعضهم يتهامسون : « صدق والله العربي » .

أما القادة والرؤساء فقد وجدوا في كلام ربعي هذا ما يشبه الصاعقة أصابت كيانهم فحطمته ، وقال بعضهم لبعض : « لقد رمى بكلام لاتزال عبيدنا تنزع إليه »[٣] .

(٣) انظر تفصيل هذه القصة في كتاب : إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء ، تأليف محمد الخضري : ١٠٠